الزَّمن الأنطولوجي والزَّمن الكوسمولوجي

(الزَّمن النفساني والزَّمن الفيزيائي)

حسين جواد قبيسي

عوام وصل كاد ينسى طولها
ذكرُ النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيامُ هجر أعقبت
بِجَوىً أسى فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام

(أبو تمّام)

«السرعةُ بربريّةُ الزَّمن المُعاصر»

(بول فيريليو)

يقرن أبو تمّام الزَّمن بالوهم، فلا تعود الأعوام والأيّام مقاييس صالِحة لقياس الزَّمن، فيختلط الماضي بالحاضر، ويطول الزَّمن ويقصر، ويحضر ويغيب بحسب مشيئة الشاعر ومشاعره، كأنّما الزَّمن مادّة طيّعةٌ تتلاعب بها أصابع ساحر، فتمطّه وتقلّصه. يعتقد الناس أنّهم يعرفون الزَّمن، لكنّ أحداً لا يستطيع أن يقول ما هو! يقول سان أوغسطين (St. Augustine) : «أعرف الإجابة عن سؤال ما هو الزَّمن؟ إذا لم يُطرح عليّ، فإذا ما طُلب منّي أن أُجيب عنه، حرتُ في أمري وأعياني الجواب»[1]. الحيرة نفسها كان قد عبّر

(1) Saint Augustin, *Les confessions*, Livre XI - La

عنها أفلوطين (Plotinus) بقوله: «إنّنا نحسّ إزاء الزَّمن بحيرة معيّنة تحدث في نفوسنا من دون عناء، وعندما نسعى إلى إعمال الفكر فيه نحتار أيضاً»[2]. ويرى بليز باسكال (Blaise Pascal) أنّ «الزَّمن هو من المفاهيم البديهية، يتّفق عليها الناس جميعاً، مع أنّه مفهوم لا يمكن تعريفه»[3]. كما يرى إتيين كلين (Étienne Klein) أنّ الزَّمن كالسراب، لأنّنا «ما إن نسعى للإمساك بطبيعته، حتّى يغيب في حجُب الضباب»[4]، فالإشكالية التي يطرحها كلين (Klein) هي أنّ تعريف أيّ مفهوم لا يتمّ إلّا بالاستناد إلى مفهوم آخر أكثر رسوخاً، في حين أنّ الزَّمن (الحركة، التحوّل، المكان، التغيّر..) غير القابل للتعريف هو المفهوم الذي يستند إليه تعريف كثير من المفاهيم الأخرى؛ فعندما نتكلّم عن الزَّمن نكون قد وافقنا على أن نتكلّم عن مفهوم غير محدَّد، وعندما نستخدم كلمة زمن في كلامنا فإنّنا نجد عند التحليل الدقيق أنّها تعني التتابع، أو التزامن، أو المدّة، أو التغيّر، أو السرعة، أو الموت، أو المستقبل... فهي كلمة تنطوي على معانٍ كثيرة»[5].

الزَّمن مفهوم غامض، وليس ثمّة ما هو أشدّ تعقيداً من مفهوم الزَّمن لا لأنّه يظهر في ألفاظ ومفردات وعبارات مختلفة فحسب، بل لأنّه يقع أيضاً على مستويات عدّة يتغيّر فيها معناه؛ فالتعقيد في مفهوم الزَّمن يتأتّى من كثرة التسميات التي يتّخذها والتي تُكسِبه

---

création et le temps.

(2) أفلوطين، التاسوع الثالث، الفصل السابع «عن الأبدية والزَّمان»، ترجمة ملحقة بكِتاب **الفلسفة اليونانية: تاريخها ومشاكلها**، أميرة حلمي مطر، (القاهرة: دار المعارف، 1998).

(3) B. Clerte et M. Lhoste-Navarre, *L'Esprit de géométrie et De l'art de persuader - Textes et commentaires*)،Paris: Éditions Pédagogie moderne, 1979.

(4) إيتيين كلين، **هل الزَّمن موجود؟** ترجمة فريد الزاهي(الإمارات: كلمة، 2012).
ما الزمن ؟ هل يوجد وجودًا حقًا؟ إن الجواب على هذين السؤالَيْن القديمين ما زال أمرًا بعيد المنال. لماذا هذا التأخر في الجواب؟ لأننا ما إن نسعى للإمساك بطبيعة الزمن، حتى نراه يغيب في حجُب الضباب. وإذا ما نحن سعينا إلى تحديد الجواب بكلمات دقيقة فإنه يشتبك بمداخل عديدة في القاموس ويتقنَّع في شكل مرادفات عديدة (كالمدة والتوالي والحركة والتغيُّر)... إنه كتاب يطرح الأسئلة الفلسفية

(5) من محاضرة ألقاها إيتيين كلين في معهد بوليتكنيك في باريس، بعنوان: **ماذا نعرف عن الزَّمن؟** على الرابط التالي:

www.youtube.com/watch?v=NDYIdBMLQR0

Étienne Klein، *Que savons-nous du temps* ? YouTube. École polytechnique. 24/03/2013.

معانيَ متباينةً، ومن تعدّد المستويات التي يندرج فيها والتي تُحيل إلى مضامين ومداليل مختلفة. هذا الغموض Bottom of form بَحَثته الدكتورة يمنى طريف الخولي بتعمّق وشمول بالِغَين في كتيّب[6] لا يتجاوز عدد صفحاته المئة، بعنوان: الزَّمان في الفلسفة والعِلم. بَيْدَ أن صغر حجم الكِتاب وكثافته لا يقلّلان من شفافيّته وعذوبته، على الرّغم من صعوبة قراءته التي يفرضها تعقيد موضوعه. فالزَّمن عماد الأساطير والأديان، ومحطّ تفكير الفلاسفة، وشاغل علماء الفيزياء السّاعين إلى تقسيمه وقياسه بوحدات تدِقُّ حتّى تصل إلى النانوثانية (Nanoseconde)، وبوحدات أخرى تضخُم لقياس عمر الكون، كالقرن والأمد والدهر، وهو شاغلٌ اللغويّين بتقسيمه إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل، وشاغلٌ المؤرّخين ليعقلوه في حقبٍ وعصور، وشاغلٌ الفكرَ الإنساني والإنسانَ العادي بتأمّل مرور الزَّمن وتجدّده في الحياة والموت.

تُقَدِّمُ يمنى طريف الخولي عرضاً مشوّقاً لذلك كلّه، فالزَّمن أو الزَّمان، لا فرق، موضوع يشغل أنشطة الفكر البشري جميعاً، فهو موضوع ديني وعلمي وفلسفي ولغوي جعلته علوم الإنسان والاجتماع مادّة أبحاثها الأساسية، لكنّه على الرّغم من ذلك، بقي عصيّاً على الوضوح، تتأرجح محاولات فهمه وإدراكه بين العقلانيَّة واللّاعقلانية، بين الزَّمن الأنطولوجي، أي الزَّمن النفسي الداخلي الذّاتي، أي الزَّمن الخاصّ بالفرد، والزَّمن الكوسمولوجي الفيزيائي، أي زمن الوجود أو المكان الخارجي. فالإنسانُ يَعْرِف عالَمَه في إطار من المكان والزَّمان، فإذا كان الوجود المكاني محسوساً ويُدرَك حسّياً، فإنّ الوجود الزَّماني يُدرَك نفسيّاً، أو، كما يقول أبو حيّان التوحيدي، «الزَّمان أمر روحاني».

تمهيداً لإدراك الزَّمان الذي لا يُدرَك إلّا من خلال تلازمه مع المكان (مقولة «الزمكانيّة» Espace-temps)، ليس أفضل من هذه المقدّمة الفلسفية المستمدَّة من كتيّب الخولي المذكور أعلاه، حين وضع المعلّم الأوّل أرسطو (Aristote) المقولات العشر (Catégories) التي هي أعمّ أجناس الوجود، جعل أوّلها الجوهر، ثمّ أعراضه التسعة (الكمّ، والكيف، والإضافة، والزَّمان، والمكان، والوضع، والحالة، والفعل،

(6) يمنى طريف الخولي، **الزَّمان في الفلسفة والعِلم**، صادر عن مؤسّسة هنداوي. والكِتاب هو في الأساس بحث في «إشكالية الزَّمان في الفلسفة والعِلم»، نشرته «ألف» مجلّة البلاغة المقارنة، (القاهرة: الجامعة الأميركية، 1989).

والانفعال). فالجوهر القائم بذاته، والمتعيَّن بماهيّته، جعل حقيقة الوجود أنّ الكون جوهر كلّي، أي إنّه واحديّ لا تكثّر فيه... كانت فاتحة الحضارة الحديثة نقلُ ديكارت (Descartes) الفلسفة من محور الوجود إلى محور المعرفة، ما هيَّأ المناخ الغربي لنشأة العِلم الحديث ونموّه، مفترِقاً عن طريق أرسطو (Aristote) ومنطقه وجوهره. مع نموّ بُنية الحضارة الحديثة، كان الجوهر الأرسطي يتراجع، إلى أن تلاشى نهائيّاً بنشأة المنطق الحديث الرياضي أو الرمزي. ولئن كان المنطق الأرسطي هو منطق الحمل الذي لا يعرف إلّا القضيّة الحمليّة، فإنّ المنطق الرياضي الحديث هو منطق العلاقات (...) أعظم إنجازات الفلسفة المُعاصِرة، فقد مهَّد هذا المنطق لصياغة مشكلات قديمة بطريقة جديدة، وكان له دَور عظيم في إثراء الفكر الفلسفي المُعاصِر، ونظرة العِلم الحديث إلى الكون، بوصفه تعدّدياً، وليس واحديّاً... بلغت هذه التعدّدية ذروتها الذرّية المنطقية مع أعظم فلاسفة العصر، وصاحب الفضل الأوّل في تطوير المنطق الرياضي برتراند راسل (Bertrand Russel) وتلميذه لودفيج فتجنشتين (Ludwig Wittgenstein)... مع نظريّة الذرّة والكوانتوم ارتدّت الذرّة إلى إشعاعات، إلى سلسلة من الأحداث، حيث لا سكون البتّة في قلب الذرّة، ولا وجود للشيء، أو للجوهر المادّي (...) ثمّ كان أخطر ما في نظرية إينشتاين (Einstein) النسبيّة أنّها اعتبرت الزَّمان البُعد الرابع للمادّة، فأطاحت الفصل التقليدي بين مفهومَيْ المكان والزَّمان، واستبدلته بتلازمهما[7].

إنّ الزمان والمكان هما القالِب الذي يتقولَب فيه الوجود جملةً وتفصيلاً، وينتظم بفضلهما الكون على هيئة كوزموس (Cosmos) تتعامل معه الفيزياء الحديثة، فهو المادّة، تتحرّك في الزمان وعبر المكان. والنظريّة الفيزيائية العامّة هي التي تُحدِّد قوانين هذه الحركة، أي حسابات الانتقال من نقطة إلى أخرى في المكان بسرعة معيّنة، وخلال مدّة بين لحظة وأخرى في الزَّمن.

يرى كانت (Kant) في فلسفته النقدية، أنّ الزَّمان متقدّم على المكان فهو أكثر اتّساعاً وحضوراً منه، وأنّ له الأفضلية والمرتبة العليا، ذلك أنّ «المكان هو شكل تجربتنا الخارجية، أمّا الزَّمان فهو شكل تجربتنا الداخلية». ويرى الفيلسوف صموئيل ألكسندر

(7) يمنى طريف الخولي، م. س.ن.

(Samuel Alexander) أنّ «المكان من دون الزَّمان كتلة مصمتة»، وأنّ «المكان هو جسد الكون والزَّمان روحه أو عقله» (Esprit). وبحسب كلود ليفي ستروس (Claude Lévi Strauss) في «الأنتروبولوجيا البنيوية» «علينا أن نبحث عن الزَّمن في طبقات الأرض الجيولوجية».

الزَّمن من الميتولوجيا إلى الدّين

حقَّق الإنسان في مساره الحضاري سيطرة، إلى هذا الحدّ أو ذاك، على المكان؛ لكنّه لم يُحقِّق نجاحاً في السيطرة على الزَّمان، على الرّغم من محاولاته الدائبة: لم يقبل الإغريق القدماء بأن يكون الموت نهاية الحياة، فاعتبروا الأموات أحياء في شكل أرواح جعلوها آلهةً لهم وعبدوها وباتت حياة الأموات بناءً علويّاً مشيّداً من نسج الأساطير، يحكم حياة الأحياء، وأشهرها أسطورة الإله كرونوس الذي كان يخشى على ملكه من أبنائه، فأخذ يلتهمهم الواحد تلو الآخر، كأنّه الزَّمان ينجب الكائنات ثمّ يقضي عليها. كما انصبّت جهود الفراعنة على تحدّي الزَّمان، والتغلّب على سطوته تأكيداً لعقيدة الخلود. كذلك تحكي أسطورة الملك جلجامش السومرية، عن الملك جلجامش، الذي اهتدى إلى سرّ الخلود الكامن في نباتٍ سحري في قاع المحيط؛ ففعل كلّ ما في وسعه للوصول إلى ذلك العشب السحري العجيب، ليأكل منه كي يسترجع شبابه، ويوزّعه على شعبه حتّى يفوز بالخلود[8].

ولأنّ في الزَّمن ديمومة الخلق والتجدّد والنموّ ثمّ الفناء والزوال – فقد رأى الإنسان العادي في طبيعة الزَّمان المراوِغة والمخادِعة مصدراً لشقائه وسعادته، ومن ثمّ عدَّ انتصاره عليه انتصاراً لحياته وطلباً لحمايتها من هذا المُخادع الذي لا يثبت على حال. ولا غَرْوَى، فالزَّمان هو نشاط النَّفس الإنسانية وحياتها وهو الحياة نفسها أو الوعي بالحياة، لكونه يندرج، بحركته، في عالَم المتغيّرات. فنحن نعرف أنفسنا من خلال الزَّمان، لذا فإنّ الوجود الحقيقي للزمان يمسّ المصير الإنساني منذ بدايته حتّى نهايته، وهذا ما جعل من الزَّمان إشكالية تحتمل وجهات نظر مختلفة، وتجعل منه قضية فلسفية؛

(8) جان صدقة، **رموز وطقوس: دراسات في الميثولوجيات القديمة**، (لندن: رياض الريس للكتب والنشر، بلا تاريخ نشر).

فحركة الزَّمان المُراوِغة هي مصدر وجود الإنسان وفنائه، لأنّ «الزَّمان يُنبئ الإنسان بموته وزواله وعبثيّة كلّ جهوده، وهو الذي يحمل أمل الإنسان ويأسه»[9]، وهو ما دعا النّفّري، الصوفي الكبير، إلى القول إنّ «الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا»، ودعا غيره إلى الاعتقاد بأنّ الزَّمن هو «كيان الوجود الفاني».

اهتمّت الأديان بالخلود والحياة الأبدية، فكان الزَّمان من موضوعات اهتمامهم. والأديان جميعاً تتعامل مع الزَّمن فتقسمه قسمَين مختلفَين: ما قبل الموت وما بعده، وتجعل الزَّمن الأوّل (العمر) الذي يقضيه الإنسان على الأرض ليس سوى فترة قصيرة ضئيلة مُقارنةً بالزَّمن الثاني (الكوني). وقد ارتبطت معظم العبادات بتقسيمٍ زمني صارم، والتقيّد بالحساب الزَّمني كشرط لصحّة العبادة. وفي التشريع الإسلاميٍ مواعيد زمنية محدَّدة وثابتة كالصلاة والصيام والحجّ، بحيث إنّ أداءها لا يتحقّق إلّا عن طريق الالتزام بأوقاتها بحسب اليوم وأجزاء اليوم، والشهر وأجزائه، والسنة وأجزائها. وقد وردت في القرآن الكريم آيات تَقسم الزَّمن ومكوِّناته: والفجر.. والعصر.. والضحى.. والليل.. والنهار.. والشمس.. والقمر..

الزَّمن والدهر: ثمّة عبارات شائعة لها قوّة إلزامية من دون وعي بمبعث هذه القوّة المُلزِمة. وفي القانون تُلغى مفاعيل حقّ من الحقوق «بفعل مرور مدّة زمنيّة معيّنة». ويُقال أيضاً «عفا عليه الزَّمن».. تُستخدَم عبارة زمن بأشكال شتّى تتراوح بين سهولة الإطلاق (هذا الزَّمن الرديء..، ولّى زمن الهزائم وجاء زمن الانتصارات..) ورصانة الدقّة في التحديد. ففي عِلم التاريخ يُطلِق المؤرّخون على حقب التاريخ تسميات مثل الأزمنة القديمة (Antiquité) والزَّمن الحديث (Modernité)، وهي هنا بمعنى عصور، أو دهور. فمفهوم الدهر في الفكر الغربي هو مقياس زمني جيولوجي، حيث استبدل بعض علماء التأريخ كلمة زمن في هذا السياق بكلمة دهر، وقسَّموا عمر الأرض إلى أربعة أقسام: الدهر السحيق والدهر الجهنمي ودهر الطلائع ودهر البشائر[10]. ويبلغ

(9) أميرة حلمي مطر. **دراسات في الفلسفة اليونانية: «التأمل، الزَّمان، الوعي»**، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1980)، ص 126.

(10) بحسب التصنيف الجيولوجي الذي وضعته الهيئة الدولية للتصنيف الستراتوغرافي (International Commission on Stratigraphy). راجع:

طول هذه الدهور أربعة مليارات سنة، غير أنّ بعض علماء الجيولوجيا كـ بريستون كلاود (Preston Cloud)[11] يجعلون الدهرَين الأوّلَين دهراً واحداً يسمّونه الدهر الأركي (بالإنكليزية Archean)، كما يسمّيه والتر بريان هارلاند (Walter Brian Harland)[12] الدهر البريسكوي (Priscoan)، وكانت فيه قشرة الأرض ما تزال ملتهبةً كباطنها، ولم تكن شروط الحياة قد تكوّنت فيها بعد، بسبب النشاط الإشعاعي للمواد المُلتهبة؛ كما يجعلون الدهرَين الآخرَيْن دهراً واحداً ويُطلِقون عليه الدهر الكامبري، وفيه بدأ الأوكسجين يظهر في أجواء الأرض[13].

ليس الدهر إذاً وقفاً على الثقافة العربية أو الإسلامية، ومع ذلك فإنّ له صفات تَمنح معناه خصوصية معيّنة يتبيّن معناها من الآية «**هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر**»، والحين هو جزء من الدهر، و«الدهر عند العرب يقع على بعض الدهر الأَطول ويقع على مدّة الدنيا كلّها» (الأَزهري). وقد جعله بعضهم أَلف سنة. ومن أقسام الزَّمن عند العرب: الدهر الأمد، والحقبة، والمدّة، والهنيهة، واللحظة، والفترة، والسنة (والسنة عند العرب أَربعة أَزمنة: ربيع وقيظ وخريف وشتاء)، والساعة (وهي بمعنى متناقض يُفيد اللّحظة الفورية، كما يفيد الأجل الطويل)، واليوم (وليس له من مدىً معيّن، فقد يكون سنةً أو أكثر أو أقلّ)، والأجل، والجديدانِ (أو الأَجَدَّان أي الليلُ والنهارُ، وذلك لأَنّهما لا يَبْلَيانِ أَبداً). ويرى بعضهم أنّ «الزَّمان والدهر واحد»، لكن بعضهم الآخر يرى أنّ «الدهر لا ينقطع»، أمّا الزَّمان فمحدود. ويقول ابن جِنّي: «إِذا كان الدهر أَبداً جديداً فلا آخِر له». فإذا كان الدهر هو «الأَمَدُ المَمْدُودُ»، فإنّ الدهري هو صفة كلّ قديم أو أزلي، لا بل عند بعضهم هو صفة كلّ أزلي/ أبدي، فاختلط معنى الدهر بمعنى الله،

International chronostratigraphic ،chart 2014.

(11) Preston Cloud, *Terebratuloid Brachiopoda of the Silurian and Devonian*, The Society, 1942.

(12) راجع كتابه: **مقياس دهر البشائر**. بالإنكليزية:
Walter Brian Harland, *The Phanerozoic Time Scale: A Supplement*, (Geological Society of London: 1971.)

(13) راجع: تيرينس مكارثي وبروس روبيسج، **حكاية الأرض والحياة** (بالإنكليزية).
Terence McCarthy, Bruce Rubisge, *Story of Earth and Life*, (Struik: Ed. University of the Witwatersrand, School of Geosciences, 2005.

فقالوا إنّ الدهر هو الله ولذا حُرِّم سبّ الدهر وذمّه عند الحوادث والنوازل تُنزِلُ بهم من موت أَو هَرَم فيقولون: أَصابتهم قوارع الدهر وحوادثه وأَبادهم الدهر، فيجعلون الدهر الذي يفعل ذلك فيذمّونه. وقد دأب العرب على السؤال عن حال الإنسان بربطه بمفاعيل الدهر، فوضعوه موضع جالب الحوادث لاشتهار الدهر عندهم بذلك. لكنّ الشافعي فسّر حديث النبيّ «لا تسبّوا الدهر فإنّ الله هو الدهر» بأَنّ الله هو الجالب للحوادث لا غير ردّاً على اعتقادهم بأنّ جالبها هو الدهر.

والدهريّة معتقَد فكري ظهر في فترة ما قبل الإسلام، ويشتقّ المصطلح من الدهر لاعتبارها الزَّمان أو الدهر السبب الأوّل للوجود وأنّه غير مخلوق ولا نهائي، وتَعتَبِرُ الدهريّة أنّ المادّة لا فناء لها. ويُعَدّ هذا المعتقَد قريباً من الإلحاد والمادّيّة. وذُكِرَ في القرآن عن الدهريّين: «**وقالوا ما هي إِلَا حياتُنا الدنيا نموت ونحيا وَمَا يُهلكُنا إِلّا الدهرُ**». وذكرهم أيضاً الشهرستاني في «الملل والنِّحَل» ونعتهم بـ«معطلة العرب».

الأزل، الأبد، العدم، السرمد: ربط الفلاسفة العرب الزَّمن بالوجود (العالَم أو العوالِم) إذ يُحيلنا الزَّمن إلى قضية حدوث العالَم وقِدَمِه التي كانت مادّة المشكلات الكلامية عند فلاسفة المسلمين، وموضع سجال بين الأشاعرة من جهة، والفلاسفة من جهة أخرى. وتجلّت في ردّ الغزالي الأشعري على الفلاسفة الذين يقولون بقِدَم العالَم، وذلك في كتابِه «**تهافت الفلاسفة**» الذي يُثبِت فيه حدوث العالَم، ثمّ في ردّ ابن رشد عليه في كتابَيْه «**تهافت التهافت**» و«**فصل المقال**»، حيث يرى ابن رشد أنّ هناك مادّة وسيطة خلقها الإله وصدر عنها العالَم المادّي، وهي الهيولى. أمّا قِدَم العالَم فيعني أنّ الوجود قائمٌ منذ الأزل وباقٍ إلى الأبد. فالأزل هو ما لا أوّل له ولا بداية، وهو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي؛ والأبد هو ما لا آخر له ولا نهاية، وهو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل. وتجمع الأبد والأزل كلمة واحدة هي السرمد التي تعني ما لا أوّل له ولا آخر، ولا بداية ولا نهاية، ولا يطرأ عليه العدم، وهو مدّة لا يتوهّم تصوّرها بالفكر والتأمّل.

والقول بأزليّة الوجود وأبديّته نجده عند أكثر فلاسفة العرب، وبخاصّة المعتزلة الذين ربطوا بين فكرة الأزليّة (اللامتناهي في الماضي)، وفكرة الأبدية (اللامتناهي في المستقبل). فكلّ ما له انقضاء ونهاية له مبدأ. أمّا الأشاعرة وبعض الفلاسفة المسلمين

كالكندي، والغزالي، والرازي فقد نفوا الأزلية والأبدية عن العالَم، وقالوا بحدوثه وفنائه، أي إنّه حادث وفانٍ، فالعدم قبل الوجود كالعدم بعده لا تمايز بينهما ولا اختلاف فيهما.

سوسيولوجيا الزَّمن

شغلت موضوعة الزَّمن العلوم الاجتماعية في فترات متقطّعة، فالآباء المؤسّسون للسوسيولوجيا منذ إميل دوركهايم (Emile Durkheim) وجورج سيمِّل (George Simmel) وماكس فيبير (Max Weber) أولوها اهتماماً كبيراً، ثمّ خبا هذا الاهتمام من بعدهم ليعود فجأة إلى الظهور منذ الثمانينيّات حينما كتب نوربير إلياس (Norbert Elias) «**في الزَّمن**»[14]، ثمّ كورنيليوس كاستورياديس (Cornelius Castoriadis) «**العالَم المفتّت**»[15]، ورينهارت كوزيلليك (Reinhart Koselleck) «**المستقبل الماضي**»[16]، ثمّ مارك أوجيه (Marc Augé) «**أين ذهب المستقبل؟**»[17]. غير أنّ ظهور مؤلّفات بول فيريليو (Paul Virilio)[18] التي ركّزت على السرعة التي تُنتجها تكنولوجيا الاتّصالات، أعادت موضوعة الزَّمن إلى صلب الاهتمام السوسيولوجي. تدرس السوسيولوجيا الزَّمن بمنهجيات متعدّدة ومتضافرة، فهو يقع على مستويات عدّة: الميتولوجيا، والدّين، واللغة، والعلوم الصحيحة، ولاسيّما علوم الدماغ. وبعامّة، تقع جميع الدراسات على مستويَين اثنَين: الصعيد الذّاتي والنفسي (الأنطولوجي)، والصعيد الموضوعي الفيزيائي (الكوسمولوجي).

لا بدّ إذاً من التمييز بين الزَّمن النفساني، ويُسمّى أيضاً «المدّة» (La durée)، وهو الزَّمن الذي يشعر به الإنسان بداخله فردياً وعلى نحو غير قابل للتقسيم، وبين الزَّمن الموضوعي وهو الزَّمن القابل للقياس. يُقاس الزَّمن الفيزيائي (الخارجي) بالساعة والرزنامة، في حين أنّ الزَّمن النفساني يعيشه الإنسان في وعيه (الداخلي). على أنّ الصفة المُلازِمة

(14) Norbert Elias, *Du temps*, (Paris : Pocket, 1984).

(15) Cornelius Castoriadis, *Le monde morcelé*, (Paris : Seuil, 1990).

(16) Reinhart Koselleck, *Le futur passé*, (Paris : Ehess, 1990).

(17) Marc Augé, *Où est passé l'avenir?* (Paris : Panama, 2008).

(18) Le grand accélérateur ; Esthétique de la disparition; Stratégie de la déception ; La ville panique ; La pensée exposée **;** L'inertie polaire ; etc…

لكلا هذَين الزَّمنَين هي أنّه لا رجوع في كليهما، وهي صفة تمنحهما طابعاً مأسويّاً: هرَمٌ وعجزٌ وموتٌ يلوح على الدّوام في الأفق، وحاجة دائمة للحفاظ ما أمكن على الزَّمن، وعدم إضاعته، لأنّ الزَّمن الضائع ضائع إلى الأبد (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك). ويميّز هنري بيرغسون (Henri Bergson) بين الوقت الزَّمني والأمد الزَّمني: فالوقت يُقاس ويُقسم، والوقت القابل للقياس (بالساعة والرزنامة والكرونومتر..) هو زمن مقسّم ومكاني، وليس في الأمد الزَّمني، ويستعين على تصوير ذلك بتوالي الصُّور السينمائية التي هي ليست حركة بل توالٍ سريعٌ لصُور منفصلة ومختلفة الواحدة منها عن الأخرى. في نظر بيرغسون (Bergson)، الوقت ليس معطىً من معطيات الوعي، فما يُحَسّ لا يمكن تقسيمه ولا قياسه، لأنّ الوعي تدفّق متجانس؛ الوقت خارج الإنسان، والزَّمن داخله.

الزَّمن الكوسمولوجي: من «غاليليه (Galilei) ونيوتن (Newton) إلى آنشتاين (Einstein)

عند غاليليه (Galilei) ونيوتن (Newton) الزَّمن هو المُعامِل[19] الذي يدّل على عدد حقيقي حاضر في المعادلات الفيزيائية (بأشكال مختلفة: السرعة، والتسارع التلقائي، إلخ..). هذا المُعامِل هو في أساس عِلم الميكانيك التقليدي، فهو يتيح حساب حركة الأجسام والأجرام في الفضاء، بتعيين مواقعها في لحظات متتالية. فهو زمن حسابي/ رياضي ومقدار يمكن قياسه لتنظيم تجارب وإجراءات ووصلها رياضيّاً؛ فبفضل هذا الزَّمن الرياضي، تمكَّن غاليليه (Galilei) من وضع «قانون السقوط الحرّ للأجسام في الفراغ» الذي يقول: «إنّ ارتفاع السقوط الحرّ لجسمٍ من الأجسام يتناسب مع مربّع زمن السقوط». ومن خصائص هذا الزَّمن أنّه يمكن تصويره بخطّ هندسي مُنتظِم ومتواصل ويجري على نحو متساوٍ (من الماضي إلى المستقبل) إلّا أنّه غير محكوم باتّجاه واحد على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن من القول إنّه يتحرّك من الماضي إلى المستقبل، تبعاً للتجربة التي تُجرى؛ فحركة الزَّمن تُقاس بالمنهجية الرياضية عينها من الماضي إلى

(19) paramètre: معيار دائم في حساب مُعادلة معيّنة يدلّ على مقدار معيّن يمكن أن يتّخذ قيماً مختلفة، أو هو معامل دائم ذو قيمة متغيّرة. وهو أيضاً عنصر ثابت في الحسابات، كأن نقول مثلاً إنّ معدّل الفائدة هو معامل دفع أقساط الرهن العقاري.

المستقبل ومن المستقبل إلى الماضي؛ فبالسهولة عينها يُمكن تعيين الكسوفات السابقة واللاحقة؛ ويُمكن للكواكب أن تتحرّك (على الورق) إلى الوراء. كلّ ما يتحرك في الطبيعة «إلى الأمام» يمكن إرجاع حركته «إلى الوراء» بزمن الحركة عينها. الزَّمن عند نيوتن (Newton) غير محكوم بالاتجّاه «أمام» أو «وراء». فهو لا يولّد شيئاً ولا يُلغي شيئاً؛ فالماضي والمستقبل مرجعيتهما إلى اللحظة الراهنة وحدها.

يقول نيوتن (Newton) إنّ الأيام الطبيعية غير متساوية، مع أنّها تُستخدَم كأداة متساوية لقياس الزَّمن. ويصحّح علماء الفلك هذا التفاوت بين الأيام من أجل قياس حركات الأجرام السماوية، بمقياس أكثر دقّة. وذلك لأنّ جميع الحركات يمكن تسريعها وإبطاؤها، لكنّ الزَّمن المطلق يبقى يجري بالطريقة عينها. مدّة ثبات الأشياء هي عينها إذاً سواء أكانت حركاتها سريعة أم بطيئة وستظلّ عينها أيضاً، حينما لا تكون هناك أيّ حركة. فهناك الزَّمن المُطلَق، الحقيقي والرياضي، القائم بذاته وبطبيعته، يجري متساوياً من دون علاقة له بأيّ شيء من خارجه، ويُسمّى أيضاً بالمدّة الزَّمنية. والزَّمن النسبي، الظاهر والشائع، المحسوس وخارج المدّة الزَّمنية، تستخدمه العامّة عادةً بدلاً من الزَّمن الموضوعي والحقيقي.

أعطى نيوتن (Newton) بـ«قوانين الميكانيك» طابعاً كونياً للزمن؛ فقد حدَّد حركة الأجرام في الفضاء تبعاً لمواقعها وسرعاتها في لحظات متوالية. ودرس تغيُّرات الموقع والسرعة والحرارة والكثافة والطّاقة.. تبعاً للزمن، وهو زمن واحدٌ ومطلَقٌ وكوني. لكنّ نظرية آنشتاين (Einstein) النسبيّة، وهي نظرية فيزيائية وفلسفية معاً، رأت أنّ الزَّمن الفيزيائي ليست له تلك الصفة الثابتة والكونية، لأنّ انقضاءه يختلف باختلاف السرعة. فكلّما كانت السرعة أكبر، كلّما انقضى الزَّمن ببطء أكثر.

ويُشير جون لوك (John Locke) إلى أنّ بوسعنا أن نقدّر عمر الكون بالسنين [والسنة الواحدة هي الدَورة الواحدة للأرض حول الشمس، كما هو معلوم]، في حين أنّ دَوران الأرض حول الشمس لم يكن موجوداً عند ولادة الكون، ولم يكن بعد هناك نظامٌ شمسي. كما يشير جون لوك (John Locke) إلى مفارقة أخرى: في حين أنّ الشعوب تقيس الزَّمن بالحركة (حركة الكواكب والأبراج، حركة رقّاص الساعة..)، فإنّ الفلاسفة الذين جاؤوا بعد أرسطو عرّفوا الزَّمن بأنّه مقياسٌ للحركة. فقد كان أرسطو يقول: «يمكن

أن نشكّ في وجود الزَّمن من دون وجود النَّفس، وفي أن يكون هناك زمن ينقضي من دون أن يكون هناك نفسٌ تحسّ بانقضائه. إن لم يكن هناك عدّاد، فلن يكون هناك عدد. فإذا صحّ أنّ من طبيعة الأمور، أن تكون النَّفس (أو الوعي، وهو من النَّفس) قادرةً على العدّ والإحصاء، فإنّ وجود الزَّمن من دون وجود النَّفس ضربٌ من المستحيل». الزَّمن عند أرسطو (Aristote) هو عدد الحركة (عدد دَورات الأرض حول الشمس، عدد دَورات عقارب الساعة..).

يجزم الفيلسوف والفيزيائي هنري بوانكاريه (Henri Poincaré) بأنّه لا يمكن القول إنّ عدّاد هذه الساعة مضبوط وعدّاد ساعة أخرى مختلّ، وإنّما يصحّ القول إنّ عدّاد ساعة مُجْدٍ وآخر غير مُجدٍ. وليس هناك مقياس للزمن صحيح وآخر غير صحيح، وإنّما هناك مقياس أكثر توافقاً من مقياس آخر، وذلك بكلّ بساطة، لأنّنا نقيس الزَّمن بالزَّمن. ولذا، فإنّ فكرة مقياس صحيح هي فكرة باطلة أصلاً، ولا معنى لها. الشرط الوحيد اللازم لكي يكون هناك أداة صالحة لقياس الزَّمن هو الانتظام (La régularité).

اتجاهات الزَّمن الثلاثة: هل للزمن اتّجاه واحد من الماضي إلى المستقبل؟ أم إنّ التحرّك في الزَّمن ممكن في الاتّجاهَين، أي من المستقبل إلى الماضي أيضاً؟ علماء الفيزياء الكوانتية يرون أنّه ليس هناك اتّجاه إلزامي للزمن المُطلق، وأنّ التحرّك في الزَّمن مُمكن في الاتّجاهَين: من الماضي إلى المستقبل، ومن المستقبل إلى الماضي، وأنّ كلّ ما في الأمر هو «تكيُّف الحياة والوعي مع مقتضيات الكون رباعيّ الأبعاد»، كما يقول أوليفييه كوستا دو بوريغار (Olivier Costa de Beauregard)[20]. فيزيائيّاً، الزَّمن ثابت، أشبه بكِتاب، فالصفحات التي تقلبها صفحة صفحة هي بمثابة الوعي: الصفحات المقلوبة ما زالت موجودة، يمكن الرجوع إليها، والصفحات غير المقلوبة بعد، موجودة هي الأخرى، يمكن الذهاب إليها.

يشبه الحاضر في الزَّمن النقطة في السطر الهندسي، فهو بمثابة حدّ لا سماكة له بين الماضي والمستقبل، محشور بين الماضي القريب والمستقبل الوشيك. وهو أيضاً الزَّمن

(20) Olivier Costa de Beauregard, *Le Temps des physiciens : «La Notion de temps» et «Le Second principe de la science du temps»*, (Éd., Aubin, 1996).

النفساني الذي يعيش في الوعي. فذكريات الزَّمن الماضي وتأملات الزَّمن المقبل لا تنتمي إلى الماضي ولا إلى المستقبل، بل هي بنت الزَّمن الحاضر، ولذا يقول سان أوغسطين (St. Augustin) إنّ الزَّمن لا يكون إلّا حاضراً، ويُقسِّمه إلى ثلاثة أقسام: حاضر الماضي (الذاكرة، والتاريخ، والحكايات، والأساطير)، وحاضر الحاضر (الوعي الراهن، أو الحدس المباشر)، وحاضر المستقبل (الأمل والانتظار)[21]. فالذكريات والأحلام والتصوّرات والتغيّرات (كالشيخوخة مثلاً) هي التي تولّد لدينا الفكرة بأنّ الزَّمن «مضى». الماضي هو زمن الذكريات والحكايات والأساطير؛ والمستقبل هو زمن الرجاء والخوف، هو زمن التوقّعات المنتظَرة (الموت) وغير المنتظَرة (أحداث الحياة).

الزَّمن على الصعيد الفلسفي أو الزَّمن النفساني: خلافاً لما هو عليه زمن ساعة الحائط ورزنامة (تقويم) الأشهر والسنوات، وهو واحد للجميع، فإنّ الزَّمن النفساني/ الذاتي أو «الزَّمن الداخلي» بحسب بيرغسون (Bergson) يختلف من فرد إلى فرد، ومن فترة في حياة الفرد نفسه إلى فترة أخرى، ومن عصر إلى عصر. وخلافاً للضجر الذي يُطيل الوقت («وتمطّ أرجلها الدقائق» بدر شاكر السيّاب)، فإنّ تتابع الأحداث والاستمرار في عمل ما يقصّره. كما أنّ ساعة راحة وساعة عمل ليستا متساويتَين، وساعة فرح لا تساوي ساعة حزن.

الزَّمن النفساني هو المدّة الزَّمنية التي نحسّ بها في داخلنا وندركها بوعينا (الزَّمن الداخلي). والزَّمن الفيزيائي هو زمن تسجّله ساعة الحائط. فكيف ينشأ الإحساس الداخلي بمرور الزَّمن؟ الشائع أنّ مرور الزَّمن يُدرَك بالفطرة، غير أنّ الفيزيولوجيا تلعب دَوراً مهمّاً في إدراك الزَّمن والإحساس الذّاتي بانقضائه؛ فالشابّ والمُسِنّ ليس لديهما الإحساس عينه بانقضاء الزَّمن. ويُفسِّر فرنسيسكو فاريلا (Francisco Varela) ذلك بقوله إنّ النشاط العقلي هو ما يجعلنا نحسّ بالزَّمن؛ فمهمّة حواسنا هي جمْع المعلومات عن العالَم الخارجي ونقْلها إلى الدماغ، ومهمّة الدماغ هي توليف هذه المعلومات لتشكيل تصوّر عقلي. هذا العمل الذهني هو ما يعطينا الإحساس بالزَّمن. وهذه العملية التي تدوم بين 0,01 و0,1 من الثانية هي ما يعطينا الإحساس بالزَّمن «الحاضر». وكلّما تقدَّم الإنسان

(21) سان أوغسطين، م. س.ن.

في العمر تقلّصت المدّة التي يستغرقها «الحاضر»، وهذا ما يفسّر الإحساس بأنّ الزَّمن يتسارع»[22]. وبحسب هذا العالِم البيولوجي، فإنّ الإحساس بانقضاء الزَّمن «ناتج عن تتابع التصوّرات العقلية: كلّ صورة تتشكّل تتفرّع من الصورة التي تسبقها وتتراصف معها، فينشأ عن ذلك إحساسٌ بتتابع الزَّمن»[23].

الزَّمن وفخّ الفلسفة والفيزياء: يقول إتيين كلين (Etienne Klein): لا بدّ لنا قبل كلّ شيء، لكي نفهم الزَّمن، أن نتفادى الوقوع في فخَّيْن متناقضَيْن متكاملَيْن نَصَبَهُما الفلاسفة والفيزيائيّون، فلا الفلاسفة من أرسطو (Aristote) إلى هيدغر (Heidegger) قدّموا تفسيراً نهائياً لمسألة الزَّمن، ولا هو شعور داخلي نفساني. ويعرِّف كلين (Klein) الزَّمن بأنّه التحوّل والتغيّر (La variabilité). هذا الفخّ تحدّث عنه رينيه غينون (René Guénon) منذ العام 1945 بقوله« إنّ الزَّمن الفيزيائي ليس زمناً حقيقياً، فلئن كان الزَّمن يندرج في المكان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فإن قياس الزَّمن ما هو إلا قياس مقدار زمني مرتبط بمكان معيَّن (وهو المقدار الذي يُتيحه الضوء لكي يقطع مسافة معيَّنة في مكان معيّن). فما يُقاس فعلاً ليس على الإطلاق مقداراً زمنياً، بل هو المسافة المجتازة خلال هذه المقدار، بحركة معيّنة، قانونها معلوم؛ وحيث إنّ هذا القانون هو العلاقة بين الزَّمن والمكان، فإنّه يمكن لنا – عندما نعلم مقدار المسافة المُجتازة – أن نستنتج مقدار الزَّمن اللازم لاجتيازها. وأياً كانت الحيلة التي نستعين بها على ذلك، فإنّه ليست هناك، في نهاية الأمر، أيّ وسيلة أخرى لتحديد المقادير الزَّمنية. وبهذه الطريقة أيضاً نحدِّد إيقاعنا السنوي الذي ينجم عنه إيقاعاتنا الشهرية والأسبوعية واليومية، وهي إيقاعات مبنيّة جميعاً على مقدار دَورة الأرض حول الشمس. وهذا ما يُسمّى الزَّمن الفيزيائي، لأنّه قائم على حساب مقياس مكاني»[24]. وهو أيضاً زمن كمّي وذاتي، الزَّمن الذي كان الإغريق يسمّونه كرونوس (Chronos)،. وهو أيضاً الزَّمن الذي يعنيه بول فيريليو (Paul

(22) Francisco Varela, *L'arbre de la connaissance : racines biologiques de la compréhension humaine*, (Paris: Addison-Wesley France, 1994).

(23) فرنسيسكو فاريلا، المرجع نفسه.

(24) René Guénon, «Les déterminations qualitatives du temps», *Le Règne de la Quantité et les Signes des Temps*, Gallimard, 1945.

Virilio)[25] في قوله: «منذ ما قبل التاريخ والتاريخ يندرج في زمن مكاني، مرتبط بمكان، بـ «هنا والآن» (*hic et nunc*)، بـ «موقعه» (*in situ*)... لكنّنا اليوم ندخل في زمن مباشر (temps live) وهو زمن شمولي، بفضل ردود الفعل المُتبادَلة عبر شبكات التواصل الاجتماعي»[26].

السرعة والتحوّلات التي تُحدِثها على الصعد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، هي المحور الذي تدور حوله مؤلّفات فيريليو (Virilio) (ومنها على سبيل المثال: **Vitesse et politique** و**Vitesse de libération**) التي لاقت انتشاراً واسعاً، وبلُغاتٍ شتّى (ما عدا العربيّة). هذه التحوّلات نجدها على نحو شامل ومبسّط في مجلّة لونوفيل أوبسرفاتور (Le Nouvel Observateur)[27] حيث عرضت أفكار فيريليو (Virilio) تحت عنوان: «**بول فيريليو: نقد السرعة**»، حول الترابط المتزايد والمتمدّد في كامل المجال الإنساني، بين سلسلتَيْن من الظواهر: التحوّل الإعلامي ونقل المعلومات بسرعة الضوء، وانتقال الأشخاص الواقعي. والمسألة التي يطرحها فيريليو هي أنّ فورية انتقال المعلومات تغذّي الوهم بفورية الانتقال الجسدي؛ فإلغاء المسافات بالإعلام والنقل الفوري للمعلومات، يولّد أملاً كاذباً بنمط انتقال سريع، وإحساساً بأنّنا نوجد في كلّ مكان هو صفة كلّية الوجود التي هي صفة إلهية، كصفتَيْ كليّة المعرفة وكليّة القدرة. هذا الوهم ناتج عن عالم معولَم خاضع لتدفّق فوري واحد، وإذاً غير زمني، وهو التدفّق الفوري الإعلامي. وهذا ما يدغدغ الحلم بأنّنا نتفلّت من قيود الحدود في المكان والزّمان.

(25) بول فيريليو (Paul Virilio) مهندس معماري ومخطّط مشروعات عمرانية ضخمة، وهو ناقد للعمران المدني الحديث، وناقد لعلاقة نمط العيش العصري بالعالَم الافتراضي الناشئ عن تسارع وتيرة التقدّم التكنولوجي في مجال التواصل والاتّصال. انصبَّت جهوده الفكرية على موضوعة «التكنولوجيا والزَّمن»، وبخاصّة على سرعة التواصل والاتّصال وسيطرتها على العلاقات الاجتماعية، ولا سيّما في مجال السياسة. أطلق عليه زميلاه جيل دولوز (Gilles Deleuze) وجان بودريار (Jean Baudrillard) لقب «فيلسوف السرعة».

(26) حوار مع بول فيريليو (Paul Virilio) أجرته المجلة الإلكترونية *La Spirale* تحت عنوان:
Jean-Paul Dollé et Paul Virilio - Une interview tirée des archives de *La Spirale* (1996-2008).

(27) J.-C. G., Paul Virilio: «Le critique de la vitesse», *Le Nouvel observateur*, 5 Août 2010.

والحال، أنّنا نشاهد ولادة ظاهرةٍ تسعى فعليّاً إلى التشكيك بثبات البطء الواضح في مرور الزَّمن وانقضائه. ومن دون أن نعي ذلك (أو ربّما نعيه، ولكن على نحو مبهم ومشوّش)، فإنّ سرعة انتقال المعلومات التي نتلقّاها هي التي توهمنا بتسارع الزَّمن. وتلك ظاهرة علمية تفسّرها البيولوجيا خير تفسير، فهي تحدث على صعيدَين: كمّية المعلومات الهائلة وسرعة انتقالها (بين لحظة إرسالها ولحظة استقبالها) الهائلة أيضاً. يتسارع الزَّمن كلّما تزايدت قيمة هذَين المعيارَين. أي كلّما تلقّيت معلومات أكثر وبسرعة أكبر، كلّما تسارعت وتيرة حياتي، على أنّ طرفَيْ المعادلة مترابطان، يؤازر كلّ منهما الآخر: كلّما كان إرسال المعلومة أسرع كلّما تزايد حجم المعلومات التي أتلقّاها؛ وكلّما تلقّيت معلومات أكثر كلّما كان عليّ أن أهضمها بسرعة أكبر، تحت طائلة الغرق في طوفان المعلومات، أو تحت طائلة التخلّي عني. هذا التخلّي ليس بذي أهمّية في حدّ ذاته، ولكنّه يصبح بالغ الأهمّية إذا كنتُ أعمل في عالَم باتت الكفاءة فيه والمهارة المطلوبة هي الفعالية المتمثّلة في القدرة على المنافسة والتفوّق في سرعة معالجة المعلومات (مع ما في ذلك من عيشٍ خارج الذّات، واغتراب عن الذّات، ولكن هذه مسألة أخرى).

بول فيريليو (Paul Virilio) والزَّمن المُعاصِر: لم يحفل هذا المهندس المعماري كثيراً بالسجال بين الفلسفة والفيزياء حول الزَّمن، بل انصبّت جهوده الفكرية على دراسة التغيّرات التي طرأت على علاقة الزَّمان بالمكان تحت تأثير السرعة على الزَّمن اليومي المعيوش؛ فالسرعة في نظر فيريليو (Virilio) هي نتاج التقدّم الصناعي والتكنولوجي، وتُفضي إلى تاريخ معولَم على حساب التاريخ المحلّي. وهي الوجه الآخر للتقدّم، الوجه الشاحب السيّئ الذي يشبّهه ببربريّة العصور الوسطى، ويرى أنّ مسؤولية العقول البشرية المفكّرة اليوم هي العمل على وقف هذه السرعة، أو على كبحها، لأنّ البشرية ماضية في طريقها إلى موتٍ محتوم[28].

وسائل الإعلام والاتّصال تُفكّك مفهوم المكان، إذ يمكن لنا أن نكون هنا وهناك في الوقت عينه، والزَّمن الحقيقي صار زمناً سحرياً، كما في الأساطير، ويمكن تشطير الزَّمن وتقسيمه ثمّ الخلط بين أقسامه والانتقال من قسم فيه إلى قسم، بحسب ما نشاء. لقد

(28) Paul Virilio, *La vitesse de libération*, (Paris : Ed.Galilée, 1995).

غيَّرت ثورة الاتّصالات العلاقة بين المكان (المسافات) والزَّمان تغييراً جذريّاً، وغيّرت علاقة الإنسان ببيئة حياته، وخلقت عزلة فردية لبضعة مليارات من الأفراد[29]. كلّ شيء يصل إلينا من دون أن نتحرّك، نتنقَّل من دون أن نبارح مكاننا، بفضل السيّارة الثابتة في مكانها: التلفزيون، والإنترنت، والهواتف الذكية.. تقلَّصَ المكان إلى رقعة صغيرة هي الشاشة التي التهمت وجهَ البسيطة. لم يبقَ شيء من اتّساع المعمورة. إنّ أُفق الشاشة يتفلّت من جاذبية الأرض وليس له موقع ثابت في المكان، والتلوّث الجديد نتيجته فقدان الجسم الحركي (Corps locomoteur) وفقدان الموقع الثابت على الأرض، والذي هو أساس هويّتنا. لقد خلقت تقنيّات التّواصل التفاعلية اضطّراباً في الإدراك، وبات لدى كلّ منّا ازدواجية في إدراك العالَم، وازدواجية بالتالي في حقيقة الواقع. فنحن هنا وهناك في آن معاً، ونحيا أسطورة الوجود في مكانَيْن في الوقت عينه (L'ubiquité). هناك ازدواجيّة بين النشاط والتفاعل، بين الوجود والوجود الاتّصالي، بين الحضور والحضور التلفزيوني. لم تعُد التجربة أو الخبرة سوى افتراضية. هذه الجمودية، هذا الثبات في المكان الذي أنتجته ثورة الاتّصالات، هذا الاستبداد الذي تُمارسه على الزَّمن الحقيقي، يولّد ما يسمّيه فيريليو (Virilio) تلوّثاً بيئيّاً من نوع آخر (Pollution dromosphérique). فسرعة الاتّصال بواسطة التكنولوجيات الجديدة، بالنقل المباشر، أي بزمنٍ مباشر حقيقي، تضع مُستخدِم الإنترنت في فراغ، بمحوها المسافة بين الأماكن والأشياء، وبين الأشخاص، أي تمحو اتّساع العالَم الواقعي. إنّه «فيروس» يُصيب حيويّة الشخص: «عاهة كبرى ناتجة عن فقدان العربة المتحرّكة الحقيقية – المسافر (مُشاهِد الشاشة)، وفقدان الأرض اليابسة الحقيقية، هذه الأرض الواسعة، أرض هويّة الإنسان في العالَم»[30].

هذا التلوّث يجب أن يكون موضع اهتمام أنصار البيئة. وبالفعل، يؤيّد فيريليو (Virilio) في ذلك عالِمة البيولوجيا جاكلين بوسكيه (Jacqueline Bousquet)، فهي

(29) نجد ذلك أيضاً عند ميشال مفزولي:
Michel Meffesoli, *Le déclin de l'individualisme dans les sociétés de masse. Le temps des tribus.* (Paris, Éd. Méridiens Klincksieck, 1988).
(30) Paul Virilio, Op. cit, p. 48.

ترى أنّ «الشيخوخة الفيزيولوجية ناتجة عن تراكم المعلومات التي يتلقّاها الجسم فتثقله وتتعبه. وعلى الجسم أن يتكيّف معها باستمرار، من دون انقطاع. لكن قدرته على التكيّف محدودة مهما كانت واسعة؛ ومع الوقت يتعب الجسم، فمع كلّ معلومة يستوعبها الجسم تجربة جديدة يعيشها»[31].

وإذاً، فالزَّمن ينقضي بسرعة أكبر بمقدار إرسال المعلومات بسرعة أكبر وبحجم أكبر. ومع بلوغ الحداثة شأواً بعيداً في مجال الابتكارات العلمية والتكنولوجية، وسيطرتها على المجال الزَّمني بشقَّيْه الفيزيائي والنفساني، كان من نتائج هذا التسارع انتقال المعلومات بسرعة الضوء في حين أنّ الانتقال الفعلي للأشخاص ما زال بطيئاً بالقياس إلى سرعة انتقال المعلومات. هذا التفاوت هو موضع تساؤل بول فيريليو (Paul Virilio): أين المكان في الزَّمن المباشر، أي انتقال المعلومات بالزَّمن الحيّ المباشر (Live)؟ انطلاقاً من الواقع المكاني والفيزيائي المادّي لعالَم معولَم، ومنمّط بمصدرٍ واحد وحيد وغزير من المعلومات المنقولة مباشرة بزمن مباشر حقيقي، فإنّ من السهل إعلان نهاية الزَّمن، لأنّ ما انتهى هو، في واقع الأمر، المكان. وحيث إنّ زمننا لا ينفصل عن معياره المكاني، فإنّ ما يقول فيريليو (Virilio) من أنّ «زمنيّة التاريخ المحلّية قد انتهت» يُصبح أمراً بديهياً.

يقول فيريليو (Virilio): «يتواصل البشر بالكلام والكتابة. واليوم الصورة هي الطاغية، أمّا المكتوب فقد انحسر وتراجع ليحلّ محلّه المظهر والمنظر والمشهد (الـ«لوك» the Look). انحصرت الكتابة اليوم ببعض الخبراء أصحاب القلم كي لا أقول «العبيد أو المستعبدين».. ما يهمّ اليوم هو الصورة، صورة الشخص. هذه الظاهرة هي اليوم نوع من الترويض، أو التخدير، تخدير العيون يمرّ عبر أدوات ووسائل التواصل والاتّصال الإلكترونية، وكان يمرّ عبر السينما، وهو تخديرٌ مُتمِّمٌ للتخدير الكيميائي. إنّه ظاهرة هلوسة متّصلة بالمشهد والصورة (L'optiquement correct). بهذا الترويض يمكن الوصول إلى خلق رأي عامّ لدى شعب من الشعوب، بكلّ بساطة، بواسطة ما نعرضه أمام عيونه ويشاهده، بصرف النَّظر عن مضمونه. نأخذ مثلاً ظاهرة الإرهاب، فليس للإرهابيّين سلطة فعلية غير سلطة الظهور على الشاشة: يظهرون على الشاشة فيبهرون

(31) Jacqueline Bousquet, *Au cœur du vivant*, (Paris, Éditions St Michel, 1992).

العالَم كلّه، إنّها سلطة الظهور، بالمعنى الديني (تقريباً). لم تَعُد مجتمعاتنا مجتمعات رأي بقدر ما أصبحت مجتمعات سيطرة. كان الرأي في المجتمعات الصناعية متّصلاً بالصحافة المكتوبة. كانت تُنتَج السلع الصناعية وكان يُنتَج أيضاً معها الرأي العامّ، لذا وُلِدَت صحافة رأي. اليوم تتزامن الصور على كلّ الشاشات بحيث تصبح قوّة التعبئة لا تولِّد تكوين رأي بقدر ما تولِّد سيطرة، بخلق مشاعر التأثّر لدى الجميع، وفي وقت واحد، بالمفاعيل التي تثيرها الصور في المشاهدين جميعاً؛ فصور تسونامي على ساحل مدينة أو جزيرة، أو انهيار برجَيْ التجارة في 11 سبتمبر... تخلق المشاعر نفسها عند الناس في كلّ أنحاء العالَم، وتلك سلطة هائلة، سلطة السرعة، فإذا كان الوقت ذهباً فالسرعة سلطةٌ»[32].

هذه السرعة هي، في نظر فيريليو (Virilio)، روح التقدّم التكنولوجي الذي ينطبق عليه حساب الفوائد والأضرار الناجمة عن كلّ تقدّم، فليست هناك أرباح في التقدّم من دون خسائر: «لم تأتِ الحداثة والتقدّم التكنولوجي بالفوائد وحدها بل حملت أيضاً الأضرار. فالتقدّم له وجه سلبي أيضاً. عندما نستخدم وسيلة أو آلة جديدة نستفيد من جدّتها وقوّتها، لكنّنا نخسر ما كان لدينا قبلها. فاختراع السيّارة مثلاً كان تقدّماً عظيماً على صعيد التنقّل والانتقال من مكان إلى مكان، بالقياس إلى الحصان، أو العربة التي تجرّها الجياد، لكن عندما ربحنا السيارة خسرنا الحصان. كذلك عندما نستعمل الإنترنت نخسر الكِتاب بما هو أداة فاعلة في ذاكرة مجتمعاتنا، وهو أيضاً أداة متينة للمستقبل، في حين أنّ الأدوات الجديدة كالكِتاب الإلكتروني مثلاً، هي أدوات أكثر تقدّماً، لكنّها أقلّ متانة وغير قابلة للثبات كالكِتاب. وقبل الكِتاب الورقي كانت الكتابة على الألواح أكثر ثباتاً من الكِتاب.

ثمّة، لا أكثر ولا أقلّ، دعايات إعلانية تروّج للتقدّم، تُنكِر ما للتقدّم من أضرار، وهذه هي الحوادث التي تكشف لنا تلك الأضرار ماثلة أمامنا باستمرار: قطار يخرج عن سكته ومئات القتلى، طائرة تسقط في البحر ومئات القتلى.. إنّه أمرٌ محزن لكنّ احتمال موت هؤلاء كان وارِداً حتّى قبل أن يقع الحادث، احتمال مُلازِم لاختراع القطار أو الطائرة

(32) حديث بول فيريليو لقناة arte.tv، *Penser la vitesse*، آخر اطّلاع 20 كانون الثاني 2009.

المدهِش. الأرض صغيرة جدّاً ولا تتّسع للتقدّم. إنّ سرعة الإعلام، وسرعة النقل، وتلوّث البيئة، تجعل الأرض صغيرةً جدّاً أمام التقدّم. فإذا كان الناس جميعاً يريدون العيش كما يعيش الأميركيّون اليوم لكان يلزمهم أكثر من خمسين أرضاً كالأرض التي يعيشون عليها الآن. ومن هنا البحث الدائب عن حياة على كواكب أخرى من أجل الانتقال إليها ومواصلة التقدّم بوتيرته الحالية.

ويرى فيريليو (Virilio) أنّ «ثمّة حدوداً للتقدّم تفرضها محدودية إمكانات الأرض نفسها. العالَم صغير جدّاً على التقدّم، وبات صغيراً جدّاً لا يحتمل الربح السريع والفوري أو على المدى القصير، وتشهد على ذلك الأزمة المالية والاقتصادية التي تقع دَورياً وكان آخرها في العام 2008. وأسوأ ما في ذلك، أن يكون هناك مَن لا يرى هذا الوضع أو مَن يتعامى عن رؤيته. وتلك بالضبط هي العدمية، لأنّ العالمَ يسير نحو احتضار بطيء، يسعى إلى حتفه بظلفه. ولا غَرْوَ، فالتقدّم التكنولوجي جعل العدمية ماثلة حاضرة بيننا»[33].

ومعنى ذلك أنّ سلطة الإعلام ووسائل الإعلام هي «سلطة سيطرة عبر الإيحاء والتكييف والتعبئة، وهذه السلطة قديمة قِدَمَ الحضارة الغربية، وناتجة بما فيه الكفاية عن العبودية العقلية والعصبية»[34]. وهذا ما تؤيّده أيضاً أعمال الباحث الألماني هَر تموت روزا (Hartmut Rosa) الذي كرَّس أبحاثه للعلاقة بين السرعة والعَولمة الاقتصادية، وبين السرعة والنّظام الاقتصادي الرأسمالي، وبخاصّة في عمله الأخير: «التسريع الاجتماعي – نظرية الحداثة الجديدة»[35].

ولا نجد خاتمةً للكتابة في مفهوم الزَّمن أفضل ممّا يقوله فيريليو (Virilio)، على الرّغم من ذلك كلّه: «لستُ متشائماً لكنّني خلافاً لذلك، مهتمٌ جدّاً بمأسوية العالَم، ولا أريد أن أتظاهر بالتفاؤل وأقول ماشي الحال وكلّ شيء على ما يُرام؛ لا بل أنا متفائل بإمكان إدارة التقدّم بطريقة أخرى وتوجيهه وجهة أخرى. يجب تكوين جامعة عالَمية تُدَرِّسُ، بسائر المناهج العلمية المتوافرة، مخاطر التقدّم وأضراره، والكوارث الناجمة

(33) حديث بول فيريليو لقناة arte.tv المرجع السابق نفسه.

(34) المرجع السابق نفسه

(35) Hartmut Rosa, *Social Acceleration: A New Theory of Modernity*. (Columbia: University Press. July 2013).

عنه. كلّ مشروعات التقدّم الكبرى تقوم اليوم على السرعة وعلى المزيد من السرعة؛ قطارات تي جي في TGV، طائرات سوبر سونيك (Super Sonic)، صواريخ بالستيّة (Ballistic)، مركبات فضائية، وسيّارات... كلّها تسعى إلى زيادة سرعتها وتقوم بتجارب تُسمّى كراش تيست (Crash test) لقياس المخاطر والأضرار الناجمة عن هذه السرعة الزائدة. يجب ألّا يتنكّر أحدٌ لهذا السعي والحرص على دراسة أضرار التقدّم ومعالجتها قبل الوقوع فيها. من دون أن ننسى أن الجامعة وُلِدت في مطلع الألفية الثانية (حوالى العام 1000) بجهود رومانية إغريقية وأوروبية وعربية لمجابهة البربرية آنذاك، وأدعو في مطالع الألفية الثالثة إلى إنشاء جامعة عالَمية لمُجابهة البربرية الجديدة الناشئة عن السرعة في التكنولوجيا والبيئة والاقتصاد. وأقول للذين ينتظرون مجيء مفكّر عملاق يقدِّم حلولاً لهذه المشكلات، إنّه لن يكون هناك ماركس جديد وفرويد جديد، أو داروين جديد.. فإمّا أن تقوم جامعة عالمية، بجهودٍ جامعة، لمجابهة مشكلات عصرنا التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية، وإمّا لن يكون هناك شيء على الإطلاق»[36].

المصادر والمراجع

- أفلوطين، **التاسوع الثالث**، الفصل السابع «عن الأبدية والزَّمان»، ترجمة ملحقة بكِتاب «الفلسفة اليونانية: تاريخها ومشاكلها» تأليف أميرة حلمي مطر، القاهرة: دار المعارف، 1998.
- الخولي، يمنى طريف، «**الزَّمان في الفلسفة والعلم**»، مؤسّسة هنداوي. من بحث في إشكالية الزَّمان في الفلسفة والعلم، نشرته «ألف» مجلّة البلاغة المقارنة، القاهرة: الجامعة الأميركية، 1989.
- صدقة، جان، **رموز وطقوس: دراسات في المثيولوجيات القديمة**، لندن: رياض الريس للكتب والنشر، بلا تاريخ نشر.

(36) *L'accélération du temps et la fin du cycle. Est-ce la fin de notre temps?*«Transition» 2012, Sciences & Spiritualité,
متاح على الرابط:
https://alexandrerouge.wordpress.com/2013/02/09/l,accélération-du-temps-et-la-fin-du-cycle-est-ce-la-fin-de-notre-temps/

- كلين، إيتيين، **هل الزَّمن موجود؟** ترجمة فريد الزاهي، الإمارات: كلمة، 2012.
- مطر. أميرة حلمي، **دراسات في الفلسفة اليونانية: «التأمل، الزَّمان، الوعي»**، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1980.
- Augé. Marc, *Où est passé l'avenir ?* Paris : Panama, (2008).
- Bousquet. Jacqueline, *Au cœur du vivant*, Paris : Edition St Michel, (1992).
- Castoriadis. Cornelius, *Le monde morcelé*, Paris: Seuil, (1990).
- Clerte.B., Lhoste-Navarre. M., *L'Esprit de géométrie et de l'art de persuader-textes et commentaires*, Paris: Éditions Pédagogie moderne, 1979.
- Cloud. Preston, «Terebratuloid Brachiopoda of the Silurian and Devonian», *The Society*, 1942.
- De Beauregard. Olivier Costa, *Le Temps des physiciens : «La Notion de temps» et «Le Second principe de la science du temps»,* Aubin : Rééd, (1996).
- Elias. Norbert, *Du temps*, Paris : Pocket (1984).
- Guénon. René, Les «déterminations qualitatives du temps», *Le règne de la quantité et les signes des temps*, Gallimard, 1945
- Harland. Walter Brian, *The Phanerozoic Time Scale: A Supplement*, London: Geological Society of London, (1971).
- Klein. Étienne, *Que savons-nous du temps?*, Paris, École polytechnique, 24/03/2013, accédé à : *www.youtube.com/watch?v=NDYIdBMLQR0*
- Koselleck. Reinhart, *Le futur passé*, Paris : Ehess, (1990).
- McCarthy. Terence, Rubisge. Bruce, *Story of Earth and Life*. Ed. University of the Witwatersrand. School of Geosciences, Struik, (2005).
- Saint Augustin, *Les confessions*, Livre XI - La création et le temps.
- Meffesoli. Michel, *Le déclin de l'individualisme dans les sociétés de masse. Le temps des tribus*. Paris : Ed. Méridiens Klincksieck, (1988).

- Rosa. Hartmut, *Social Accélération: A new theory of modernity,* Columbia: University Press, (July 2013).
- Varela. Francisco, *l'arbre de la connaissance : Racines biologiques de la compréhension humaine*, Paris : Addison-Wesley France, (1994).
- Virilio. Paul, J.-C. G.,: «Le critique de la vitesse», *Le Nouvel Observateur*, 5 Août 2010 .
- Virilio. Paul, Dollé. Jean-Paul, *Une interview tirée des archives de La Spirale* (1996-2008)
- Virilio. Paul, *La vitesse de libération*, Paris : Ed. Galilée, (1995).
- *L'accélération du temps et la fin du cycle. Est-ce la fin de notre temps?* «Transition» 2012, Sciences & Spiritualité

مُتاح على الرابط:

- *https://alexandrerouge.wordpress.com/2013/02/09/lacceleration-*du-temps-et-la-fin-du-cycle-est-ce-la-fin-de-notre-temps/